الإسراءُ والمعراجُ

لقد كان الإسراءُ والمعراجُ تكريماً عظيماً للنبيِّ ﷺ ، ولكنْ بعدَ نجاحٍ باهرٍ في امتحانٍ صعبٍ ، فما هذا الامتحانُ الصعبُ الذي اجتازه النبيُّ ﷺ حتى استحقَّ هذا التكريمَ الفريدَ ؟ إنه امتحانُ الطَّائِفِ .

إنَّ ما لاقاه النبيُّ ﷺ مِن مختلف ألوان المِحَن ، ولا سيما ما رآه في ذهابه إلى الطائف ، كان مِن جُمْلة أعماله التبليغية للناس ، فكما أنّ النبي ﷺ جاء يبلِّغنا العقيدةَ الصحيحةَ عن الكونِ وخالقِه ، وعن الحياةِ وحقيقتِها ، وعن الإنسانِ ورسالتِه ، وعن أحكامِ العباداتِ والمعاملاتِ ، وعن مكارمِ الأخلاقِ ، كذلك جاء ليبلِّغ الناسَ عن طريق السلوك العملي أنّ اللهَ كلّفهُم بالصبرِ والمصابرةِ ، والبذلِ والمثابرةِ ، فكما أن النبي ﷺ علَّم الناسَ بأقواله ، كذلك علَّمهم بأفعالِه ، وكما أنّه قال للناس : « . . . وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي. . . »[1] ، و : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، خُذُوا مَنَاسِكَكُمْ »[2] ، كذلك قال لهم بلسانِ حالِه : اصبروا كما رأيتموني أصبر ، ونحن بأمَسِّ الحاجةِ إلى هذا الدرسِ البليغِ .

ليس بيْنَ الصبرِ على الشدائدِ ، والتضرّعِ إلى اللهِ تعالى بالشكوى أو

(١) أخرجه البخاري عن مالك بن الحوريث (٦٠٥) .
(٢) أخرجه النسائي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ (٤٠١٦) .

الدعاءِ أيُّ تعارُضٍ أو تناقضٍ ، فالشكوى إلى الله تعالى تعبُّدٌ ، وأيّ أنواع التعبُّد ؟ ، إنّه أعلاها ، قال تعالى :

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] .

إنّ الضَّراعةَ له ، والتذلُّلَ على بابه عزَّ وجل يُلْبِسُ العبدَ جلبابَ العبوديةِ ، ولقد علَّمنا النبيُّ ﷺ في حياتِه كِلاَ الأمْرَيْنِ ، فكان بصبرِه الشديدِ على المصائبِ والمِحَنِ يعلِّمنا أنّه على المسلمين أنْ يصبروا ، وأنْ يصابروا ، وكان بطُولِ دعائِه وتضرُّعِه ، والتجائِه إلى الله تعالى يعلِّمنا أنّ هذا من لوازمِ العبوديةِ لله عز وجل ، وهل مِن دعاءٍ أكثرُ دَلالةً على عبودية النبي ﷺ مِن هذا الدعاء الذي دعا به في الطائف ، إذْ قال : « اللهمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ ، وَأَنْتَ رَبِّي ، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي ، إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي ، أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي ؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلاَ أُبَالِي ، وَلَكِنْ عَافِيَتُكَ أَوْسَعُ لِي ، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِيَ غَضَبَكَ ، أَوْ أَنْ تُحِلَّ عَلَيَّ سَخَطَكَ ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ »[1] .

حقيقةٌ خطيرةٌ ، وهي أنّ النفسَ الإنسانيةَ مجبولةٌ في أصلِ فطرتِها على الإحساسِ والشعورِ ، الشعورِ بلذّةِ النعيمِ ، والشعورِ بألمِ العذابِ ، فهي مجبولةٌ على الركونِ إلى الأوّلِ ، والفزعِ مِن الثاني ، وحينما يوطِّن

(١) مجمع الزوائد (٦/ ٣٥) ، وقال : أخرجه الطبراني عن عبد الله بن جعفر .

الإنسانُ نفسَه على تحمُّل كلِّ أنواعِ الضُّرِّ والعذابِ ، وهو يؤدِّي رسالةَ ربِّه ، مبتغياً بهذا وجهَه ورضوانَه ، لا يعني هذا أنه لا يتألّم للضرِّ ، ولا يستريحُ للنعيمِ ، فالنفسُ مهما تَسَامَتْ لا تخرجُ عن دائرةِ بشريَّتها ، ولكنْ حينما يفضِّلُ الإنسانُ الضرَّ مهما تكن آلامُه ، على النعيمِ مهما تكن لذائذُه إرضاءً لوجهِ ربِّه ، وأداءً للرسالةِ التي أُنيطتْ بهِ ، عندئذٍ يستحقُّ جنةَ ربِّه إلى أبد الآبدين ، حيثُ يجدُ فيها ما لا عينٌ رأيت ، ولا أذنٌ سمعتْ ، ولا خطرَ على قلبِ بَشَرٍ ، ولولا أنّ النبيَّ ﷺ بَشَرٌ تجري عليهِ كلُّ خصائصِ البشرِ لَمَا كانَ سيِّدَ البشر .

حينما يتأملُ الإنسانُ في سيرةِ النبي ﷺ مع قومِه يجدُ أنه لاقى مِن أذَى قومِه ما لا يتَحَمّله بَشَرٌ على الإطلاق ، بَيْدَ أنّ الإنسانَ يجدُ أيضاً مع كلِّ نوعٍ من أنواعِ الأذى ، ومع كلِّ مرحلةٍ من مراحله رداً إلهيًّا على هذا الإيذاء ، مواساةً ، وتبشيراً ، وتكريماً ، وتأييداً ، حتى لا يتجمَّعَ في النفسِ مِن عواملِ التألُّمِ والضَّجرِ ما قد يُدخِلُ إليها اليأسَ ، وما الإسراءُ والمعراجُ في حقيقته إلا ردٌّ إلهيٌّ تكريماً له بعد تلك المِحنةِ القاسيةِ التي كشفتْ حقيقةَ الحرصِ النبويِّ على هدايةِ الخلْقِ ، وكشفتْ صبرَه الجميلَ على إيذائِهم ، وموقفَه النبيلَ والرحيمَ منهم ، حينما عَرَضَ عليه مَلَكُ الجبالِ أن يُطْبِقَ عليهم الجبَلَيْن ، وهو الردُّ الإلهيُّ على دعائه في الطائف ، ولعل هذا معنى قولِه تعالى في آخر آية الإسراء :

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء : ١] ، أي : سمع اللهُ دعاءَك يا محمدُ في الطائف ، وعَلِمَ منكَ حرصَك على هدايةِ قومِك الذين بالغُوا في الإساءةِ إليك ، هذا هو الدرسُ الأولُ .

أمّا الدرسُ الثاني : فعندما سأله زيدُ بنُ حارثةَ متعجباً : يا رسولَ الله ، كيفَ تعودُ إلى مكةَ ، وقد أَخْرَجَتْكَ ؟ فأجابه النبيُّ ﷺ : « يا زيدُ ، إنَّ اللهَ جاعلٌ لِمَا ترى فرَجاً ومخرجاً ، وإنَّ اللهَ ناصرٌ دينه ، ومُظهِرٌ نبيه » ، فما كان اللهُ ليتخلَّى عن دينِه ، ولا عن نبيِّه ﷺ ، ولا عن المؤمنين ، مهما بدتْ هجمةُ أعداءِ الدين قويةً ، وشاملةً ، فالباطل عقيدةً أو قوةً إلى انهيارٍ محقَّقٍ ، ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء : ٨١] .

ومَن ظنَّ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لا ينصرُ رسلَه ، ولا يُتمُّ أمرَه ، ولا يؤيِّدُ جندَه ، ولا يعلِيهم ، ولا يظهرُهم على أعدائِهم ، وأنه لا ينصرُ دينَه وكتابَه ، مَن ظنَّ ذلك فقد ظنَّ باللهِ ظنَّ السَّوء ، ونَسَبَه إلى ما لا يليقُ بكَمالِه وجَلالِهِ ، وأسمائِه الحسنى ، وصفاتِه الفضلى ، فإنَّ عزَّتَه وحِكْمَتَه تأبَى ذلك ، ويأبَى أن يذلّ أولياءَه ، ويأبى أنْ يكونَ النصرُ المستقرُّ ، والظفرُ الدائمُ لأعدائه ، فمن ظنَّ به ذلك فما عرَفَه ، ولا عَرَفَ أسماءَه ، ولا عرَف صفاته .

ليس القرآنُ كتابَ تاريخٍ ، يروي سيرَ الأنبياء والمرسلين وقَصصَ الأقوام السابقين فحسْبُ ، ولكنه كتابُ هدايةٍ وتعليمٍ ، يقصّ علينا قصصَ الأنبياء والمرسلين ، وهم قِمَمُ البشر ، لنهتديَ بدعوتهم ، ونقتديَ بسيرتهم ، ويروي لنا أيضاً قَصصَ الأممِ السابقة الذين كذّبوا أنبياءهم ، وعانَدوا رُسُلَهم ، واعتَدَوا على بني جلدتهم ، فاستَحَقُّوا غَضَبَ الله ، فأهلكهُم اللهُ بذنُوبِهم ، وذَاقوا وبالَ أمْرِهم ، لنجتنبَ أسبابَ هلاكِهم ودمارِهم .

ماذا يعلِّمنا الإسراءُ والمعراجُ ؟ إنَّ دروسَ الإسراءِ والمعراج تعلِّمُنا أنَّ لِلْمِحَنِ والمصائبِ حِكماً جليلةً ، منها أنَّها تسوقُ أصحابَها إلى بابِ الله تعالى ، وتُلبِسُهم رداءَ العبوديةِ ، وتلجئُهم إلى طلبِ العونِ مِنَ الله ، إنها تعلِّمنا أنّه لا ينبغي أنْ تصدَّنا المحنُ والعقباتُ عن متابعةِ السيرِ في استقامةٍ وثباتٍ ، إنها تعلِّمنا أنه ما دام اللهُ هو الآمرَ فلا شكَّ أنَّه هو الضامنُ والحافِظُ والناصرُ ، إنَّها تعلِّمنا أنه لولا الجهادُ والصبرُ ما عُبِدَ اللهُ في الأرض ، ولا انتشرَ الإسلامُ في الخافِقَيْن ، ولا كنّا اليومَ نوحِّد اللهَ ، ونسبِّحه ، وندعو إليه ، إنها تعلِّمنا أن اليسرَ مع العسرِ ، وأنَّ النصرَ مع الصبرِ ، وأنَّ الفرَجَ مع الكرْبِ ، إنّها تعلِّمنا أيضاً أنّه لا يُعَدُّ المسلمُ مسلماً إلا إذا انتمَى إلى مجموعِ المسلمين ، وحَمَلَ همومَهم ، وساهَم بشكلٍ أو بآخرَ في ردِّ العدوانِ عنهم ، فَعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ ، إِذَا اشْتَكَى عُضْواً تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى »[1] ، وقال ﷺ أيضاً : « الْمُؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضِهِمْ نَصَحَةٌ مُتَوَادُّونَ ، وَإِنِ افْتَرَقَتْ مَنَازِلُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ ، وَالْفَجَرَةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ غَشَشَةٌ مُتَخَاذِلُونَ ، وَإِنِ اجْتَمَعَتْ مَنَازِلُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ »[2] .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٦٥) ، ومسلم (٢٥٨٦) .

(٢) الترغيب والترهيب (٢٧٢٨) ، وقال : رواه ابن حبان في كتاب التوبيخ ، وأخرجه البيهقي في الشعب عن أنس (٧٦٤٨) ، رواية أنس في الترغيب والترهيب موضوعة ولا أدري إن كان للحديث طريق صحيحة .

وعَنْ أَبي مُوسَى عَنْ النَّبيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً ، وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ »(١) .

وعَنْ عَلِيٍّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الْمُؤْمِنُونَ تَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ ، يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ ، لاَ يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ ، وَلاَ ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ »(٢) .

ومِن أروعِ الأحاديثِ قولُه عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ ، لاَ يُسَالِمُ الْمُؤْمِنُ دُونَ الْمُؤْمِنِ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلاَّ عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ »(٣) .

هذه نقطة مهمة جداً في قانونِ المسلمين الدوليِّ ، إنّ سِلْمَ المؤمنين واحدة ، لا يسالِم مؤمنٌ دون مؤمن في قتالٍ في سبيل الله ، إلا على سواءٍ وعدلٍ بينهم ، فلا يحقُّ لفئةٍ أنْ تصطلحَ مع عدوٍّ بشكلٍ انفراديٍّ ، هذا وصفٌ دقيقٌ مِن قِبَلِ مبعوثِ العنايةِ الإلهيةِ لِما هو عليه المؤمنون ، أو لِمَا ينبغي أنْ يكونوا عليه في شتَّى أقطارِهم ، وديارِهم ، مِن تعاونٍ وتناصرٍ وتعاطفٍ ، فهُمْ كالجسدِ الواحدِ ، نصحةٌ متوادُّون ، وهم بنيانٌ واحدٌ يشدُّ بعضُه بعضاً ، هم يدٌ على مَن سواهم ، سِلْمُهم واحدةٌ ، وحربُهم واحدة ، هذا ما ينبغي أنْ يكونَ عليه المؤمنون في شتَّى أقطارِهم وأمصارِهم .

---

(١) البخاري (٤٦٧) ، ومسلم (٢٥٨٥) .

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٥١) ، والنسائي (٨٦٨١) ، وابن ماجه (٢٦٨٤) ، وغيرهم .

(٣) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٣) .

أوصافُ المؤمنين في الكتابِ والسنةِ مقاييسُ دقيقةٌ ، نقيسُ بها إيمانَنا ، أو هي أهدافٌ نضعُها نصبَ أعينِنا ، ينبغي أنْ نسعَى إليها ، فلابدّ للمسلمِ الصادقِ أنْ يحملَ همومَ المسلمين في مختلف أصقاعهم وأمصارهم ، ومَن لم يهتمَّ بأمْرِ المسلمين فليس منهم ، بل إنَّ تطلعَ المسلمِ إلى أنْ يكون المسلمون في شتّى أقطارهم أعزةً كرماءَ ، يملكون أمرَهم ومصيرَهم لهي علامةٌ من علاماتِ إيمانِه ، وإنّ حرصَ المسلم على أنْ يكون المسلمون متعاونين متناصرين لهي علامةٌ مِن علاماتِ إخلاصِه ، فالفرديةُ طبعٌ ، والتعاون الاجتماعيُّ تكليفٌ ، والإنسانُ المؤمنُ يتعاون مع إخوته المؤمنين بقَدْرِ طاعته لله ، وينسلخُ منهم ، ويؤكِّد فرديَّته بقدر تفلُّته مِن منهج الله ، وحينما ينهى الإنسانُ نفسَه عن خصائصِ طبعِه التي هي في الأصلِ تُناقِضُ التكليفَ ليكونَ هذا التناقضُ مع التكليفِ ثمناً للجنةِ ، وحينما ينهَى الإنسانُ نفسَه عن خصائصِ طبعه ، ويحمِلُها على طاعةِ ربِّه يكونُ حينئذٍ قد أَخَذَ بسببٍ مِن أسبابِ الجنةِ :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤١] ، وقال سبحانه :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ [النور : ٥٥] ، قال بعضهم : فإنْ لم يمكِّنهم فمعنى ذلك أنَّ دينَهم لم يَرْتَضِهِ لهم ، لأنه سبحانه قال :

﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ [النور : ٥٥] ، ولقد أنجزَ اللهُ وعدَه للمؤمنين يومَ عبدوهُ حقَّ العبادة ، فأطَاعوهُ ولم

يعصُوه ، وشكرُوه ولم يكفرُوه ، وذكَرُوه ولم ينسَوه ، فجعلَ اللهُ منهم قادةً للأممِ ، بعدَ أنْ كانوا رعاةً للغنمِ ، ثم ماذا كان بعد ذلك ؟ قال تعالى :

﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴾

[مريم : ٥٩]

ومِن دلائلِ نبوةِ النبيِّ ﷺ أنه وصفَ هذا الغيَّ الذي توعّدَ اللهُ به المقصِّرين ، وبيَّن أسبابَه ، وكأنه ﷺ بيننَا يرَى ما نرَى ، ويسمعُ ما نسمعُ ، فعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا ، فَقَالَ قَائِلٌ : وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُم الْوَهْنَ ، فَقَالَ قَائِلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَمَا الْوَهْنُ ؟ قَالَ : حُبُّ الدُّنْيَا ، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ »[1] .

هذا وصفٌ دقيقٌ للغيِّ الذي توعّد اللهُ به المقصرين ، فالأممُ اليومَ يدعُو بعضُها بعضاً لمقاتلةِ المسلمين ، وكسرِ شوكتهم ، وسلبِ ثرواتِهم وأخذِ أموالِهم ، واغتصابِ أراضِيهم ـ كما تداعَى الأكلةُ إلى قصعتِها ـ يأخذون منها بلا مانع ، ولا منازع ، فيأكلونها عفواً وصفواً ، يأخذون ما في أيديهم بلا تعبٍ ينالُهم ، أو ضررٍ يلحقُهم ، أو بأسٍ يمنعُهم ، فانظروا إلى هذا الوهْنِ الذي هو سرُّ الضعف ، فالناسُ الشاردون الغافلون

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧) ، وأحمد (٢٢٤٥٠) عن ثوبان .

عنِ الله يعيشون عبيداً لدنياهم ، عشاقاً لأوضاعهم الرَّتيبةِ ، تحرِّكُهم شهواتُهم وشبهاتُهم ، تسيِّرُهم رغائبُهم ونزواتُهم ، وهذا هو الوهنُ ، وحينما يَكرهُ الإنسانُ لقاءَ ربِّه ، ويخافُ الموتَ كامناً في كلِّ اتِّجاهٍ ، فيفزعُ من الهمْسِ ، ويألمُ من اللمْسِ ، يؤثِرُ حياةً يموتُ فيها كلَّ يومٍ موتات ، على حياةٍ كريمةٍ عزيزةٍ في كَنَفِ ربِّ الأرضِ والسماواتِ ، فالعجبُ كلُّ العجبِ أنْ يكونَ النورُ بينَ أيديهم ، والرائدُ نصبَ أعينهم ، ثم هم يلحقُون لاهِفين برِكابِ الأممِ الشاردةِ المنحلَّةِ في نهجهم وسلوكهم ، فلا يستطيعون رشاداً ، ولا يهتدون سبيلا ، وحالهم :

كَالْعِيسِ[1] فِي الْبَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا وَالْمَاءُ فَوْق ظُهُورِهَا مَحْمُولُ

ومِن دلائلِ نبوةِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام ، ومِن خلالِ إعلامِ اللهِ له أنّه ذكرَ ما يصيبُ المسلمين في آخرِ الزمانِ منْ بأساءَ وضراءَ بسببِ إعراضِهم عن ربِّهم ، وتقصيرِهم في طاعتِهم له ، فَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ ؛ لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ ، وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلاَفِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا[2] ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ

(١) [العِيس هي الإبِلُ البِيضُ مع شُقرةٍ يسيرة] ، (لسان العرب ، مادة عيس) ، وانظر (النهاية في غريب الحديث (٣/ ٣٢٩) .

(٢) انظر الآن إلى مرض نقص المناعة (الإيدز) ، والسرطان ، وغيرها من الأمراض المستعصية ، نسأل اللهَ السلامة والعافية .

أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلاَّ جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ »[1] .

إنها المعاصي والذنوبُ ، والمجاهرةُ بالفواحش والعيوبُ ، والتعرُّضُ لسَخَطِ علام الغيوب ، فإنَّه ما نزلَ بلاءٌ إلا بذنبٍ ، ولا رُفِعَ إلا بتوبة ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] ، وإنه ما حصلَ البلاءُ العامُّ في بعضِ البلادِ ، ولا وقعتِ المصائبُ المتنوعةُ ، والكوارثُ المروِّعةُ ، ولا فَشَتِ الأمراضُ المستعصيةُ التي لم يكنْ لها ذِكْرٌ في ماضِينا ، ولا حُبِسَ القطرُ من السماءِ إلا نتيجةَ الإعراضِ عن طاعةِ الله عز وجل ، وارتكابِ المعاصي ، والمجاهرةِ بالمنكراتِ ، وكلَّما قلَّ ماءُ الحياءِ قلَّ ماءُ السماءِ .

* * *

شروط النصر

إنّهم يصفون المالِكَ للأرضِ الطريدَ المشرَّدَ إرهابياً لا حقَّ له ، والمتمسكَ بدينِه القويمِ أصولياً ، ويجعلون اللصَّ الغالبَ على المقدساتِ ربَّ بيتٍ محترماً ، يملكونَ الأرضَ لا بالإحياءِ الشرعيِّ ، ولكن بالإماتةِ الجماعيةِ ، والقهرِ النفسيِّ ، قال تعالى :

---

(١) ابن ماجه (٤٠١٩) ، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٣١٥) .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : ٢٤] .

هؤلاءِ المستكبرون ربما طالبُوا الشعوبَ المستضعَفةَ أنْ تَلْعقَ جراحَها ، وأنْ تبتسمَ للغاصبِ ، وأنْ تَعُدَّ حقَّها باطلاً ، وباطلَ غيرِها حقًّا ، يقول ﷺ : « كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِمَعْرُوفٍ ، وَلَمْ تَنْهَوْا عَنْ مُنْكَرٍ ؟ قَالُوا : وَكَائِنٌ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ ، قَالُوا : وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ ؟ قَالَ : كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَراً ، وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفاً ؟ ـ تَبَدَّلَتِ القِيَمُ ـ قَالُوا : وَكَائِنٌ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ ، قَالُوا : وَمَا أَشَدُّ مِنْهُ ؟ قَالَ : كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا أَمَرْتُمْ بِالْمُنْكَرِ ، وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ ؟ قَالُوا : وَكَائِنٌ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ »[1] .

هذا النصرُ المؤزَّرُ العزيزُ ما سرُّه ؟ من يصنعه ؟ ما العاملُ الحاسمُ فيه ؟ إنّه اللهُ عز وجل ، وهذا استناداً إلى قوله تعالى :

﴿ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ١٢٦] ، وقوله :

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٠] ، أي إذا كان اللهُ مَعَكَ فمَنْ عليك ؟ وإذا كان اللهُ عليك فمَن مَعَكَ ؟

أليس لهذا النصرِ الذي هو مِن عندِ اللهِ قواعدُ ؟ أليست له شروطٌ ؟

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في العلل (٢/ ٤١٨) عن أبي أمامة .

أليس له ثمنٌ ؟ إنّ هذه القواعدَ ، وتلك الشروطَ ، وهذا الثمنَ يتلخَّصُ بكلمتين اثنتين ؛ الإيمان والإعداد ، فأمّا الإيمان فقد قال تعالى :

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] ، وأمّا الإعدادُ فقال عز وجل :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

فالإيمانُ الحقُّ هو الذي يحمِلُ صاحبَه على طاعةِ اللهِ والعملِ الصالحِ ، والإيمانُ وحدَه شرطٌ لازمٌ غيرُ كافٍ . والشيء الثاني هو الإعدادُ ، والإعداد هو الذي يستنفدُ الطاقاتِ ، وهو أيضاً وحدَه شرطٌ لازِمٌ غيرُ كافٍ ، فلا بدَّ مِنَ الإيمانِ الحقِّ ، والإعدادِ الصحيحِ .

الآن دقِّقوا في هذا الاستنباطِ مِن قوله عز وجل :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، إنَّ اللهَ جلا في عُلاهُ لم يكلِّفْنا أنْ نُعِدَّ القوَّةَ المكافئةَ لأعدائِنا ، ولكنْ كلَّفنا أنْ نعدَّ القوةَ المتاحةَ ، وهذا مِن رحمةِ الله بنا ، وعلى اللهِ أنْ يُنجزَ وعْدَه بالنصرِ ، كما أنَّ مِن الواجب علينا أنْ نبحثَ في كلِّ مظنَّةِ ضَعْفٍ عن سببِ قوةٍ كامنةٍ فيه ، ولو أخلصَ المسلمون في طلبِ ذلك لوجدُوهُ ، ولصارَ الضعفُ قوةً ، لأنّ الضعفَ ينطوِي على قوةٍ مستُورةٍ يؤيِّدُها اللهُ بحفظِه ورعايتِه ، فإذا قوةُ الضعفِ تهدُّ الجبالَ ، وتدكُّ الحصونَ ، قال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح : ٤] .

إن الحديثَ عن القوَّةِ النابعةِ مِنَ الضعفِ ليس دعوةً إلى لرضَى بالضعفِ ، أو السكوتِ عنه ، بل هو دعوةٌ لاستشعارِ القوةِ حتى في حالةِ

الضعفِ ، وربما صحَّتِ الأجسامُ بالعللِ ، فينتزعُ المسلمون مِن هذا الضعفِ قوةً تحيلُ قوةَ عدوهم ضعفاً ، وينصرُهم اللهُ نصراً مبيناً ، قال تعالى :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [القصص : ٥] .

هذه الحقائقُ المستنبَطةُ مِنَ القرآنِ الكريمِ منهجُ اللهِ لخلْقِه ، وتلك التوجيهاتُ التفصيليةُ والتوضيحيةُ التي جاءتْ بها سنةُ نبينا محمد ﷺ ، وهذه المواقفُ الأخلاقيةُ الرائعةُ والحكيمةُ ، التي وقَفَها المصطفى ﷺ أسوتُنا وقدوتُنا ، وتلك البطولاتُ الفذَّةُ التي ظهرتْ مِن أصحابِه الكرامِ ، أُمَنَاءِ دعوته ، وقادةِ ألويته ، هذه كلُّها نضعُها بين أيدي أبناءِ أمّتِنا العربيةِ والإسلاميةِ ، وهي تخوضُ المعاركَ تِلْوَ المعاركِ معَ أعدائِها ، أعداءِ الحقِّ والخيرِ ، ولأنّ البكاءَ وحدَه لا يحيِي الميتَ ، ولأنّ الأسفَ وحدَه لا يردُّ الفائتَ ، ولأنّ الحزنَ وحدَه لا يدفعُ المصيبةَ ، ولكنّ العملَ مفتاحُ النجاحِ ، والصدقَ والإخلاصَ مع متابعةِ النبي ﷺ هو سُلَّمُ الفلاح ، قال تعالى :

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة : ١٠٥] .

في الإسلامِ تشريعٌ ومعاملاتٌ ، ولكنّ المقصودَ منها تنظيمُ حياةِ الناسِ ، حتَّى يستريحُوا ويبرؤوا مِنَ الصراعِ على المتاعِ الأدنى ، ويتفرَّغوا لمعرفةِ الله تعالى ، وعبادتِه ، والسعيِ لمرضاته ، وفي الإسلامِ حَثٌّ على المشيِ في مناكِبِ الأرضِ ، والأكلِ مِن طيِّباتِها ، ليكونَ العملُ

أساسَ الابتلاء ، والنعمةُ وسيلةً لمعرفة المُنْعِم ، وأداءِ حقِّه وشكْرِه ، وفي الإسلامِ جهادٌ وقتالٌ للأعداءِ ، حتّى لا تكونَ فتنةٌ ، ويكونَ الدينُ للهِ ، لقد ضَمَّنَ القرآنُ الكريمُ الجهادَ معنًى إنسانياً نبيلاً وفريداً ، وحدَّدَ له مقاصدَه العليا ، مُنَزَّهَةً عن الهوى ، والأغراضِ الماديةِ العاجلةِ ، والمطامعِ الشخصيةِ والعنصريةِ ، مِن شهوةِ العلوِّ في الأرضِ ، أو التوسُّعِ فيها ، لتكونَ أمّةٌ هي أَرْبَى مِن أُمَّة ، وجرّدَ الإسلامُ الجهادَ وسيلةً رئيسةً لترسيخِ القيّمِ والمُثُلِ العليا في الوجودِ البشريِّ ، والحفاظِ عليها ، وإنّ الإسلامَ لم يجعل الجهادَ مفروضاً في أعلى مراتبِ الفرضيَّةِ ، وأعظمِها مثوبةً مِن أجلِ الدفاعِ عن الوجودِ ، أو الحفاظِ على مقوماته فحسبُ ، بل أَوْلاَهُ عنايةً فائقةً ، إذْ جعلَه سنداً مَكِيناً لدعوتِه التي تسعى إلى نشرِ رسالةِ السماءِ إلى الأرض ، لتتحقَّقَ خلافةُ الإنسانِ فيها عن طريقِ التمسُّكِ بمبادئِ الحقِّ والخيرِ ، وقيمِ العدلِ والإحسانِ ، فجعلَ الإسلامُ الجهادَ خالصاً لوجهِ الله تعالى ، وابتغاءَ مرضاته ، وإنّ مرضاتَه لا تتمّ إلا إذا سادتْ تعاليمُه ، وَعَلَتْ في الأرض مُثُلُه ، حتى لا تكونَ فتنةٌ ، ويكونَ الدينُ لله ، ولا أَدَلَّ على صحةِ هذه المبادئِ ، وتلك المفاهيمِ مِن هذه السعادةِ التي تملأُ جوانحَ الإنسانِ حينما يكتشفُ سرَّ وجوده ، وجوهرَ رسالته ، وينطلقُ في طريقِ الهدفِ الكبيرِ الذي خُلِقَ مِن أجله .

* * *

المسجد الأقصى

المسجدُ الأقصى مَوْطِنُ أبيكم إبراهيمَ ، ومتعبَّدُ الأنبياءِ السابقين ، ومَسْرى خاتَمِ النبيين ، المسجدُ الذي نَوَّهَ اللهُ بهِ في الآياتِ المفصّلةِ ، وتُلِيَتْ فيه الكتبُ المنزَّلةُ ، أُولَى القِبلتَيْنِ ، وثانِي المسجديْن ، وثالثُ الحَرمَيْن الشريفيْن ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ : « لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَّ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ : مَسْجِدِي هَذَا ، وَمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى »[1] .

إنّ المسجدَ الأقصَى الذي باركَ اللهُ حوْلَه ببركاتِ الدينِ والدنيا ، والذي أضحى بالإسراءِ إليهِ والمعراج منهُ رمزاً للشخصيةِ المعنويةِ للمسلمين ، هذا المسجدُ الذي وردَ ذكرُه في القرآنِ الكريمِ ، مسجدُ الصخرةِ الذي تمَّ منها عُروجُ النبي ﷺ إلى سِدرَةِ المنتهى ، قال تعالى :

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [النجم : ٨ـ ٩] ، يتعرّضُ اليومَ إلى محاولةِ تهويدِه ، وجعلِه عاصمةً أبديةً للكيانِ الصهيوني مع القدس ، وفي وصفِ القرآنِ الكريمِ المسجدَ الأقصى بالبركةِ إيماءٌ قويٌّ للعربِ حَمَلَةِ رسالةِ الإسلامِ ، والمسلمين في مشارقِ الأرض ومغاربِها على أنّه المفروض عليهم الحفاظُ عليه ، وقد باركَ اللهُ حولَه أنْ يحفظَ له هذه البركةَ ، ومتى اعتُدِيَ عليه فعليهم أنْ يصطلحوا مع الله أولاً ، ويُعِدُّوا لعدوِّهم ما يستطيعون مِن قوة ثانياً ، كي يحرِّروه ،

(١) البخاري (١١٣٢) ، ومسلم (١٣٩٧) .

ويحرِّروا ما حولَه مِن أيدي الغزاةِ المغتصبين ، ويُحْيُوا بتحريره سيرةَ فاتحيه ؛ عمرَ بنِ الخطاب ، وصلاحِ الدين الأيوبي ، ويومئذٍ يفرحُ المؤمنون بنصرِ الله .

وأنتِ يا مدينةَ القدسِ ، إنكِ عبَقُ[1] التاريخ الإسلامي ، إنك أريجُه الفوَّاحُ ، شذا الرسالاتِ السماوية ، أضاء أرجاءَك قبسُ الإيمانِ ، ونبارك ثراكِ بمسرى سيدِ الأنامِ ، تمتلئُ قلوبُ المسلمين اليوم شجاً وحزناً ، وتفيضُ الدموعُ أسًى وحسرةً ، وهي ترى مئاتِ الحواجز تَحُولُ دونَها ودون الوصول إلى أُولَى القبلتين ، وثالثِ الحرمين الشريفين ، إلى مسرى نورِ الهداية ، سيدنا محمد ﷺ ، كم يتُوقُ المسلمُ إلى الصلاةِ خشوعاً للهِ في المسجد الأقصى ، لكنَّ المشهدَ مأساويٌّ ، والمصابَ جَلَلٌ ، فالقدسُ ما زالت أسيرةَ الصهيونيةِ الغادرةِ ، وما زالت مهدَّدةً بالتهويدِ ، وبطمسِ معالمِها الإسلاميةِ ، بل وأدهى مِن ذلك أنَّ الصهاينةَ خطَّطوا لهدمِ المسجدِ الأقصى ، وكم تَعَرَّض هذا المسجدُ لمحاولاتِ الحرقِ والهدمِ ، كم هي خطيرةٌ تلك الأنفاقُ التي شقَّها الأعداءُ تحتَ المسجدِ فَعَرَتْ أساسَه ، وعرَّضتْها للخطر ، كم هو خطيرٌ مخطَّطُ التهويدِ .

حينما تُسْلَبُ أرضُ شعبٍ ، وتُنْهَبُ ثرواتُه ، وتُنْتَهك حرماتُه ، وتُدَنَّسُ مقدساتُه ، وتداس كرامتُه ، وتُقهَر إرادتُه ، وتُفسَد عقائدُه ،

---

(١) رجل عبِقٌ وامرأة عبِقةٌ إذا تطيَّب وتعلَّق به الطِّيبُ ، فلا يذهب عنه ريحُه أياماً] ، (لسان العرب ، مادة عبق) ، [العبَق مصدر عَبِقَ به الطِّيبُ ، أي لزِق به] ، (مختار الصحاح ، مادة عبق) .

وتُفرَغ قيمُه ، ويزوَّر تاريخُه ، ويُحمَلُ على الفسادِ والإفسادِ ، وتُمارَسُ عليه ألوانُ التجهيلِ ، والتجويعِ ، والتعذيبِ على يدِ أعدائه ، أعداءِ الله ، أعداءِ الحق ، أعداءِ الخير ، أعداءِ الحياة ، عندئذٍ لا بدَّ لهذا الشعبِ أنْ يتحرَّك ليستردَّ حقَّه في الحياةِ الحرَّةِ الكريمةِ ، هذه الحركةُ لا يمكنُ أنْ تُسمَّى إرهاباً ، ولا تخريباً ، ولا انتحاراً .

وأنتم أيها الثائرون في الأراضي المحتلةِ بوركتْ سواعدُكم ، وسَلِمتْ أيديكم ، لقد كنتم رمزَ البذلِ والعطاءِ ، ولقد ضربتُم المَثَلَ الأعلى في التضحيةِ والإباءِ ، لقد تحركتْ فيكم معانيَ العزةِ والإباءِ ، فأَقْلَقْتُمْ مضاجعَ الصهاينةِ الأعداءِ ، ولكنِ استمعوا معي إلى وصيةِ سيّدِنا عمرَ بنِ الخطابِ لسيدِنا سعدِ بنِ أبي وقاصٍ رَضِيَ اللهُ عَنهما ، إذْ يقول : « أما بعد ؛ فإني آمُرُكَ ومَن معك مِنَ الأجنادِ بتقوى اللهِ عز وجل ، فإنّ تقوى اللهِ أفضلُ العُدَّةِ على العدوِّ ، وأقوى المكيدةِ في الحربِ ، وآمُرُكَ ومَن معك أنْ تكونوا أشدَّ احتراساً مِنَ المعاصي ، فإنها أَضَرُّ عليكم مِن عدوِّكم ، إنما تُنْصَرُون بمعصية عدوكم لله ، فإنِ استويتم في المعصيةِ كان لهم الفضلُ عليكم بالقوةِ » .

* * *